الفصل الثالث

الطبيعة الإنسانية

فى الفلسفة المثالية المعاصرة وانعكاساتها التربوية

إن طبيعة الإنسان وماهيته وجوهره قد أخذت حيزاً كبيراً من البحث والدراسة لدى الفلاسفة عبر العصور المتباينة ، للكشف عن أسرارها وخباياها . وتعتبر مشكلة الطبيعة الإنسانية من المشكلات الفلسفية الهامة التي شغلت الفكر الإنساني منذ القدم . وهي مركز اهتمام الفيلسوف ، كما أنها الشغل الشاغل للمربى ، فمن الصعب أن نعطى تعريفاً ملائماً للتربية دون أن يكون لدينا تصور للطبيعة الإنسانية . ومن الطبيعى أن يختلف تعريف التربية باختلاف النظر إلى الطبيعة الإنسانية إذ أن التربية فى حقيقتها تنمية وتهذيب الموجود الإنساني من الناحية العقلية والجسمية والروحية والاجتماعية "[1].

" والمثاليون بصفة عامة يرون أن الهدف من التربية هو تهذيب وتنمية الشخصية ، وهذا الهدف كان واضحا فى كتب كانط وجنتيلى وهورن Horne "[2] .

---

[1] Redden. John and Ryon Francis " A Catholic philosophy of Education" Milwaukee, Bruce, 1942, P.23.

[2] Ozman " Philosophical foundations of Education" P. 16.

إن الهدف من التربية عندهم هو إعداد الإنسان فى صورة مثالية وهـــى تربية تساعد الإنسان أن يفهم نفسه ويدرك طبيعتـــه الروحية ولتحقيـــق هذا الهدف تركز التربية على قيم الحق والخير والجمال " [1] .

ويجب أن ترتكز أية فلسفة للتربية على نظرة معينة عن الإنسان ، والعالم والوجود . فالبحث فى الطبيعة الإنسانية هو استمرار للبحث فى الوجـــود بصفة عامة فالمربى وفيلسوف التربية ــ بشكل خاص ــ يجب ألا يكتفيا بمعرفة طبيعة الوجود الذى نعيش فيه ونتعلم فيه أيضاً بل يجب أن يعرفا أيضاً الصفات الخاصة بذلك الإنسان الذى يتعلم "[2] .

ويستهدف هذا الفصل تحليل الطبيعة الإنســـانية فـــى الفلســـفة المثاليـــة المعاصرة وانعكاساتها التربوية وذلك من خلال المحاور الآتية :

أولاً : الطبيعة الإنسانية بين التغير والثبات .

ثانياً : الأساس الاجتماعى للطبيعة الإنسانية .

ثالثاً : موقف لالاند من ثنائية الطبيعة الإنسانية .

رابعاً : الطبيعة الإنسانية بين الخير والشر .

خامساً : التربية الروحية .

سادساً : خاتمة الفصل .

---

(1)Loretta"Teaching and Learning" New Delhi, Lippincott,CO,1965,P.81

(2) Brubacher Modern Philosophies of Education P.42.

أولاً : الطبيعة الإنسانية بين التغير والثبات :

إن البحث فى الطبيعة الإنسانية يظهر لنا أنها تحتوى على عدد من الخصائص ، كانت محكا للخلاف بين الفلاسفة فترتبط نظرة الفيلسوف إلى الطبيعة الإنسانية بنظرته إلى الوجود والمعرفة والقيم . والمثالية المعاصرة ترى أن الطبيعة فى حالة تغير دائم وصيرورة مستمرة ، وهذا ما عبر عنه برجسون ولالاند وكروتشه وبرنشفك . ومعنى التربية أساساً قائم على افتراض أن الوجود الإنساني فى حالة من التطور والتغير المستمر. إن الإنسان يمر بسلسة من التغيرات . والتربية ما هى إلا إحداث هذا التغير وإذا كانت الطبيعة الإنسانية فى تغير ، فالمثالى المعاصر يرى أن الوجود يتغير أيضاً " ويترتب على ذلك أن أهداف التربية يجب أن تتبدل من مكان إلى مكان ومن زمان إلى آخر " [1] .

ويصور كروتشة الذات الإنسانية وهى فى حالة من التطور والتقدم ، فيقول " إننا نستطيع أن نرى فى أنفسنا فى تقدمنا العقلى اليومى كيف أن أفكاراً أوسع تحوى وتفوق أفكار السنة السابقة ، بل اليوم السابق بل الدقيقة السابقة " [2] . ومن هنا يؤكد كروتشه على التربية العقلية المستمرة التى يكتسبها الإنسان فى كل لحظة من حياته وان التربية لا تتوقف عند لحظة ما من حياة الإنسان بل تستمر معه طوال حياته ، فإذا كانت الحياة تتغير وتتبدل كما يصورها كروتشة فعلى الإنسان أن يتكيف مع هذه الحياة المتغيرة ، فالخبرة الإنسانية تتسع بشكل تقدمى متزايد ،

---

[1] Ibid , P.76.

[2] كروتشه "المجمل فى فلسفة الفن" ترجمة سامى الدروبى، القاهرة، دار الفكر العربى،١٩٧٤ ، ص١٣٩.

ومعرفتنا فى حالة نمو مستمرة ، والعقل فى ارتفاع دائم حتى يصل إلى مستويات أعلى فأعلى وهو دائماً ينشد تجسيد المطلق .

ولقد عبر برجسون عن هذا المعنى بقوله : " والحق أننا نتغير دون انقطاع ، وأن الحالة نفسها ليست إلا تغيراً " [1] .

ويتحدث برجسون عن الوجود الإنساني فيقول : " ليس ثمة ريب فى أن وجودنا هو الوجود الذى نراه أكيداً إلى أكبر حد ، والذى نعرفه على أكمل وجه ، وذلك لأنه من الممكن أن نحكم على معانى الأشياء الأخرى التى نكونها لأنفسنا بأنها معان خارجية وسطحية ، فى حين أننا ندرك أنفسنا ادراكاً داخلياً وعميقاً ، فالإحساسات والعواطف والارادات والتصورات هى التغيرات التى تتقاسم وجودى ، والتى تلونه كل منها بلون خاص واحدة بعد الأخرى .

فأنا إذن فى تغير مستمر ... نعم إنني أتغير ... فإن مجهوداً ضئيلاً من الانتباه أبذله ربما كشف لى أنه ما من وجدان ، وما من تصور، وما من إرادة إلا وتتغير فى كل لحظة ، ولو أن حالة نفسية ما توقفت عن التغير لتوقف زمنها عن الجريان " [2].

وهكذا نجد أن الذات الإنسانية عنده فى حالة تغير دائم، وانتقال مستمر لا ينقطع ولا يتوقف ، ومع ذلك فهو تغير متصل ، وهذا ما عبر عنه برجسون : " وأخيراً كل ما يكون شعورنا الذاتى فى لحظة معينة ، فهذه المنطقة بأسرها هى التى تكون حالتنا فى حقيقة الأمر ، وإذن يمكن القول

---

[1] برجسون "التطور الخالق" ترجمة محمد محمود قاسم ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٤ ، ص١٣ .

[2] المرجع السابق ، ص١٢.

بأن هذه الحالات التى عرفناها على هذا النحو ليست عناصر منفصلة بل يتصل بعضها ببعض فى تيار يسيل إلى مالا نهاية لـــه ... ولـو كـان وجودنا مكونا من حالات منفصلة يظن أن " ذاتاً " محـايدة لدينـا تقـوم بالتآلف بينها لما كان للديمومة وجود بالنسبة إلينا ، وذلك لأن الذات التى لا تتغير لا تستمر فى الديمومة " [٤] .

وأيضاً يصور برنشفك الذات الإنسانية على أنها تغير دائـم ، وتطـور مستمر فالعقل ينبوع الحقيقة " والحقيقة ليست أبدا بالنسبة إلى العقل أمراً ثابتاً إنها حياة ...، وهكذا فإنه فى الوقت الذى يولد فيه الحق وينمو فان العقل ينمو ويتطور ويتقوى لأن العقل ليس شيئا مكتملا ثابتاً لا يتغير" [٢٠] .

إن الذات فى تقدم ونمو دائم من خلال ما تكتسبه مـن معـارف علميـة ورياضية ولذلك كان الاهتمام الأكبر لبرنشفك العنايـة بدراسـة التقـدم المستمر الذى حققته البشرية ، كما حرص على دراسة الإنسان من خلال تكوين ذاته عبر التاريخ ، وكذلك ذهب لالاند إلى أن الطبيعة الإنسـانية فى تغير دائم بل ذهب إلى أكثر من ذلك فهو يرى أن التغير ليـس مـن صفـات الإنسان فقط بل إيضاً من صفات المجتمع الـذى يتجـه نحـو الوحدة والتشابه فى التقدم مستمر ويتجه نحو الوحدة وإزالـة الفـوارق والطبقات داخل المجتمع ، وبذلك ربط لالاند بين تغير الطبيعة الإنسانية والطبقات الاجتماعية . وقد ذهب برجسون إلى أن خلق الإنسان لنفسـه بنفسه يكون أكثر تماما كلما أجاد التفكير فيما يفعل " [٣٠] .

---

[٢٩] المرجع السابق ، ص١٣، ١٤.

[٣٠] بنروبى "مصادر وتيارات الفلسة المعاصرة فى فرنسا" القاهرة ، دار النهضة المصرية ، ١٩٦٧، ص٤٤٠.

[٣١] برجسون – التطور الحاضر ، ص ١٧.

فالإنسان ينمو ويتغير من خلال الخبرات التى يتعلمها ويكتسبها من الحياة فليس هو آلة ميكانيكية كما صوره الماديون لا حول لهـــا ولا قـــوة بـــل مركز قوة منبهة ، وقوة خالقة متطورة حرة تعرف ما تفعل ومسئولة عن أفعالها " ويخطىء إذن من يحسب الإنسان آلة صماء فى يـــد القوانيـــن المادية ، إنما هو كائن مدرك ، حر الإرادة ، قادر على اختيـــار ســـلوك معين ، والاختيار خلق وإنشاء " [١] .

وفى ذلك يقول برجسون :

" ونحن نجد أن الوجود بالنسبة إلينا كائن شعورى ينحصر فى التغير وأن التغير ينحصر فى النضج والنضج ينحصر فى أن يخلق المـــرء نفســـه بنفسه على نحو غير محدود " [٢] .

ويقول أيضاً " إننا نخلق أنفسنا خلقاً مستمراً ، هذا إلى أن خلق الإنســـان لنفسه بنفسه يكون أكثر تماماً كلما أجاد التفكير فيما يفعل " [٣].

ويشير برجسون هنا إلى أن الذات فى تغير دائم ، وفى حالة من الخلـــق المستمر من خلال ما تكتسبه الذات من خبرات متباينة قد تكون خـــبرات مقصودة أو غير مقصودة .

والإنسان مدنى بطبعه ، يعيش فى بيئته مع الآخرين ، وهـــو يتعـــرض لخبرات عديدة ؛ فهو يحتك بالبيئة ، ويكتسب منها الخبرات ، ويتفـــاعل معها . وهنا يتعلم ويكتسب معلومات ومهارات ، بل إنه ينمـــى قدراتـــه

---

(١) ذكى نجيب محمود وأحمد أمين "قصة الفلسفة" ، مرجع سابق – ص ٣٧٠ .

(٢) برجسون " التطور الخالق" مرجع سابق ص ١٧.

(٣) المرجع السابق ، ص٧٧.

وإمكانياته واستعداداته حتى يستطيع أن يتوافق مع بيئته . والإنسان أكثر الحيوانات مرونة وقابلية للتعلم ، وكذلك للتعليم ، ولم تعد الذات الإنسانية تقف عند حد معين من العمر من اكتساب للخبرات ، بل تستمر فى اكتساب الخبرات ، لأنها فى تغير دائم واكتساب خبرات جديدة ، فهى فى حالة بناء مستمر .

وقد أشار برجسون إلى ذلك بقوله : " إن شخصيتنا التى يستمر بناؤها فى كل لحظة عن طريق تكديس التجارب لا تكف عن التغير ... وهكذا تنمو شخصيتنا وتكبر وتنضج دون انقطاع ، وفى كل لحظة من لحظاتها عنصر جديد ينضم إلى ما كان موجودا منها من قبل ... وهذا هو الحال بالنسبة إلى لحظات حياتنا التى نصنعها نحن بأنفسنا ، فكل لحظة منها نوع من الابتكار " [1] .

ويرى برجسون وكروتشه وبرنشفك ولالاند أن تربية الذات الانسانية وتنمية قدراتها تستمر فى كل لحظة وتتم هذه التربية من خلال التجارب والخبرات التى يتعرض لها الإنسان فى حياته ، فالإنسان فى نمو دائم لا ينقطع وفى كل لحظة من لحظات حياته يكتسب خبرات جديدة وتتراكم هذه الخبرات والتجارب داخل الذات الإنسانية وتشكل طبيعتها وتؤثر فى سلوكها سواء كان ذلك شعورياً أو لا شعورياً ، وقد أشار كروتشة الى هذا حينما قال " إننا نستطيع أن نرى فى أنفسنا وفى تقدمنا العقلى كيف أن أفكاراً أوسع تحوى وتفوق أفكار السنة السابقة بل اليوم السابق بل الدقيقة السابقة " [2] .

---

[1] المرجع السابق ، ص ١٦ .

[2] كروتشه " المجمل فى فلسفة الفن" مرجع سابق ، ص١٧٩.

ويشير برجسون إلى أهمية الذاكرة ، فهى التى تحفظ الخبرات التى اكتسبها الإنسان من طيات النسيان هذه الخبرات التى تشكل شخصية الإنسان . وإذا كانت الذات فى تطور دائم وبناء مستمر ، فالذاكرة هى الوعاء الذى يحفظ الخبرات والتجارب التى اكتسبها الإنسان فى كل لحظة من لحظات حياته وفى ذلك يقول برجسون : " فالذاكرة عندنا هى وعاء البقاء ، وخادمة الزمان التى تحفظ لنا الكثير من صور الماضى المتراكمة " [١٠] ، فهى تحفظ الخبرات السالفة التى تكون عوناً للإنسان فى حياته فهى تكون فى الإنسان إدراكاً يستعين به الإنسان فى كل ما يتعرض له من مشكلات وبرجسون يؤكد أن هناك ضربين من الذاكرة : ذاكرة الجسم وهى تسترجع الماضى إلى الحاضر بطريقة آلية نفعية فهى تتكون من العادة . والنوع الثانى من الذاكرة هو الذاكرة التصورية الخالصة ، تختزن الماضى كله وتحيا فى ديمومة مستمرة وهى طريقة تتكون من الاعتماد على التذكر وفى تعلم الدروس من خلال الاستظهار ، وهذه الذاكرة تعمل على استدعاء الأحداث الفريدة التى اختزنتها وهى ذاكرة تصورية أكثر منها مادية ، على عكس النوع الأول من الذاكرة " [١١] .

والذاكرة عند برجسون يستعين بها الإنسان فى كل ما يعرض له من مشكلات ، فالذاكرة هى التى تحفظ هذه الخبرات والتجارب المكتسبة ، كما أن وظيفتها هى استدعاء هذه الخبرات التى مرت بنا فى الحياة الماضية " فكل ما شعرنا به وفكرنا فيه وأردناه منذ طفولتنا الأولى ماثل

---

(١٠) أحمد أمين " قصة الفلسفة الحديثة " مرجع سابق ، ص٣٦٩.

(١١) Peter Sondiford " Educational Psychology" London, Longmans Green Co., 1934. P.237.

أمامنا وباسط ذراعيه نحو الحاضر الذى سيلحق به " [١٩] ، وكل هذه التجارب والخبرات والاحساسات والأفكار التى تعلمناها منذ الطفولة واكتسبناها تحفظها الذاكرة ، وهى موجودة فى " اللاشعور " ــ وهذا هو تعبير برجسون ــ وهى تساعد على إنتاج مجد وحل للمشكلات التى يتعرض لها الإنسان . ويقول برجسون : " وفى الواقع ما نحن وما هى طباعنا إن لم نكن ذلك المزيج المركز للتاريخ الذى عشناه منذ ولادتنا ، بل قبل ولادتنا ، ما دمنا نجىء إلى الحياة مع استعداداتنا الوراثية " [٢٠].

وفى ذلك إشارة إلى أهمية الخبرات السابقة على حياة الإنسان التى اكتسبها الآخرون ومدى تأثيرها فى تشكيل وبناء الذات الإنسانية عند برجسون ، فليس بالطبع أن يتعلم الإنسان من الخبرات التى مر هو بها فقط بل إنه يتعلم من خبرات السابقين عليه وهى الخبرة غير المباشرة .

خلاصة القول : أن الذات الإنسانية فى تغير وتطور دائم وتشكل مستمر من خلال خبرات مقصودة أو غير مقصودة وتجارب وخبرات مباشرة وغير مباشرة . كل ذلك يشكل الذات الإنسانية تشكيلا يجعلها قادرة على التوافق مع البيئة التى تعيش فيها ، وتساهم فى تطورها وتقدمها ، من أجل إيجاد المجتمع الفاضل الذى تسوده القيم والمثل العليا التى دافع عنها برجسون بصرخة عالية ضد المادية التى سادت أوربا .

فالمثالية المعاصرة فلسفة ترى أن الطبيعة الإنسانية فى حالة من التغير والتطور المستمر ، يترتب على ذلك قابليتها للتعديل من جهة كونها تستطيع التعلم وزيادة قدراتها الكامنة على التغير ، ولذلك يمكن تنمية

---

[١٩] برجسون – التطور الخالق ، مرجع سابق ، ص١٥.

[٢٠] المرجع السابق ، ص ١٥.

القدرات العقلية للإنسان سواء كان من ناحية التذكر أو الفهم أو الذكاء . لذلك فالمثالية تعارض المذهب القائل بثبات الذكاء لدى الإنسان والـــذى ترتب عليه فى فلسفة التربية التى تقوم عليه الحتمية الاجتماعيـــة " ورأى بعضهم فى هذا المذهب ما يبرر نظام الطبقات الاجتماعية فهم يعتقـــدون أن الأفراد الذين يكون حاصل ذكائهم عاليا نتيجـــة لقدراتهـــم الممتـــازة يرتفعون إلى القمة فى سلم الطبقات الاجتماعية " [١] .

" أما الذين يكون حاصل ذكائهم منخفضاً نتيجة لاســـتعداداتهم الضعيفـــة فيبقون فى الأدنى ويكون على المدارس ، تبعاً لذلك ، أن توجه الفريـــق الأول إلى الدراسات الفكرية العالية، بينما توجه الفريق الثانى نحو منهاج مهنى خاص .

فإذا أضفنا الآن إلى هذا الرأى القائل بأن المثيل يميل إلى ولادة مثيل له كان هناك عندئذ ما يجيز لنا أن نأمل من أطفال الأسر المجتمعة فى مكان عال من الحلقات الاجتماعية والاقتصادية أن يكونوا أقدر على الإفادة من فرص البقاء الطويل فى المدرسة من الأطفال الذين يأتون من الجماعات ذات الدخل المنخفض . ونكتفى هنا بهذا القدر من المناقشة دون توســـع فى الحديث عن استخدام بعض المفكرين هذا النوع من المنطق فى تأييد الفكرة القائلة بضرورة منح الفرص التربوية العالية لجنس متحكم متسلط من أجناس البشر ، وضرورة تمييزه على جنس أدنى منه وذلك نتيجـــة لتقدم الثقافة عند الأول تقدماً يؤخذ دليلاً على سموه فى قابليـــة الإبـــداع والأصالة المتوارثة بين أفراده " [٢].

---

[١] Brubacher " Modern Philosophies of Education" P.57-58.

[٢] Ibid P.58 .

وقد لقى مذهب الحتمية الاجتماعية معارضة شديدة من المثالية المعاصرة التى تؤمن بحرية الإنسان فهو منشىء أفعاله وسيد مصيره وهو قادر على تحمل مسئولية سلوكه ، وفى الفصل الأخير من الرسالة يتم تناول قيمة الحرية عند الفلاسفة المثالية المعاصرين وإذا كان مذهب الحتمية الاجتماعية قد لقى معارضة شديدة من المثالية المعاصرة فانه قد آن الأوان للإشارة إلى الأساس الاجتماعي للطبيعة الإنسانية فى الفلسفة المثالية المعاصرة .

ثانياً : الأساس الاجتماعى للطبيعة الإنسانية :

إن النظر إلى الطبيعة الإنسانية من وجهة نظر اجتماعية تؤكد أن الإنسان مدنى بطبعه ــ يعيش فى بيئته مع الآخرين ، ولذلك ترتبط الطبيعة الإنسانية بالعائلة، والمجتمع ، والدولة ، والعالم كله ، فالإنسان جزء من المجتمع .

إن فيلسوف التربية يسعى لفهم الأساس الاجتماعي للطبيعة الإنسانية ، فالإنسان منذ ولادته يكون معتمداً على الآخرين فى حياته ، والفرد جزء من المجتمع يعيش مع الآخرين فى علاقات اجتماعية .

١ – العلاقة بين الفرد والمجتمع :

وترى المثالية المعاصرة أن العلاقة بين الفرد والمجتمع لا تخرج عن أمرين : الأمر الأول أن يخضع الفرد للمجتمع ، والثانى أن يتجاوز الفرد حدود الجماعة .

وفى الحالة الأولى المجتمع يرسم للفرد حياته ، ويخطط له والفرد يتشبع بعاداته وقيمه السائدة ، أو كما قال لالاند " الجماعة هى معلمة الفـــرد ، والفرد جزء من المجتمع ويجب أن يتعلم احترام وطنه كما نعلمه القراءة والكتابة " [١] .

ولا يعنى ذلك أن المثالية المعاصرة ترى أنه يجب المحافظة على الوضع القائم باعتباره وضعا مثاليا . ولكن المثالى المعاصر يرى أنـــه لابد من أن تخضع عادات المجتمع للنقد والتحليل ، أو كما ذهب برنشفك لابد من الإقلاع عن التقاليد الزائفة . والطبيعة الإنسانية للفـــرد ترتبـــط بالعائلة والمجتمع والدولة والعالم ذلك لأن الفرد جـــزء مـــن المجتمـــع والدولة والعالم ، فيقول لالاند " إن الجماعة بأسرها كائن ليس أقل منـــا شخصية ، وأنه لا يتعذر علينا إدراك وحدته إلا لأننا لسنا فى مســـتواه واللغة الدارجة مملوءة بالتعبيرات التى تجعل الحكومـــة رأس الدولـــة ، وطرق المواصلات شرايين ، وأسلاك البرق جهازا عصبيا " [٢] .

وبما ان الدولة على المدى البعيد هى شخصية أضخم من أى فرد ، وأنها فى الواقع كيان كلى أكثر أهمية وأضخم من أى فرد ، وأنها فى الواقـــع كيان أكثر أهمية من أجزائها ، فيجب على الطالب أن يتعلم احترام وطنه ومجتمعه إن المجتمع يرتبط أعضاؤه بعضهم ببعض ارتباط خلايا الكائن الحى ، أو ارتباط أعضاء قرية النمل : والطبيعة حين أرادت للإنسان أن يكون حيوانا اجتماعيا قد أرادت له هذا التضامن الوثيق " [٣] . والمجتمع

---

(١) لالاند " محاضرات فى الفلسفة " ترجمة أحمد حسن الزيات ويوسف كرم ، القاهرة ، المطبعة الاميرية ، ١٩٩٥ ص ٥٣ .

(٢) لالاند " محاضرات فى الفلسفة " ، مرجع سابق ، ص٥٣ .

(٣) برجسون " منبعا الاخلاق والدين " مرجع سابق ، ص٩٠ .

يتكون من عادات يفرضها المجتمع على الفرد ابتغاء المحافظة على ذاته ، والتربية هنا تعمل على غرس هذه العادات لدى الفرد .

وفى ذلك يقول برجسون : " إن ما اختزنه الطفل منذ بزوغ الوعى فيه ، وهو يختزن فى نفسه كل ما أكسبته إياه الإنسانية وقدمته له فيما تلقنه من علم وتفرض عليه من تقاليد ، وفيما تحيطه به من أعراف ومؤسسات ، بل وفى قواعد النحو ومفردات اللغة وإشارات الكلام " [١] . ولأن من الضرورى للمجتمع أن يحافظ على بقائه ، ويعمل على تحقيق وحدته وتماسكه ، فهو من أجل ذلك يقوم على الضغط على الأفراد بجهاز من العادات والتقاليد تنحصر مهمته فى صيانة كيان المجتمع ، فيكون كالرباط الذى يجمع بين الأفراد مثل الرباط الذى يجمع بين خلايا الجسم الواحد أو بين نمل القرية الواحد " ويجب على الطالب أن يتعلم احترام وطنه الذى يعيش فيه ، والذى ولد فيه ، ويجب عليه أن يدرس المقومات الثقافية للأمة كما يدرس البيئة المحلية التى يعيش فيها حتى يتسنى له أن ينمى فى نفسه إحساساً قوياً بالولاء للمثل العليا " [٢].

ويقول لالاند : " إن كل فرد يولد ويربيه أفراد بالغون ، يجد نفسه محوطاً بشبكة محكمة من التعاليم والأوامر ، فيبدأ بأن يتعلم لغة ، فيتسرب إليه كل ما يأتى من اللغة بقوة ورسوخ عظيمين، لأنه مكتسب فى السن التى يكون المخ فيه أقدر على تحصيل العادات وحفظها " [٣] .

---

[١] المرجع السابق ص٩١ .

[٢] محمد منير مرسى " فلسفة التربية" مرجع سابق ، ص١٧٦ .

[٣] لالاند " محاضرات فى الفلسفة" ، مرجع سابق ، ص٥٣ .

وهو يتحدث هنا عن التنشئة الاجتماعية حيث أن الفرد يعيش مع الآخرين ثم يتشرب منهم العادات والقيم السائدة وثقافتهم ولغتهم ، " فمن المؤكد أن كل جماعة تحدث فى أفرادها تأثيراً عقلياً قوياً " [٢٩] .

ويقول لالاند : " فالجماعة كأنها معلمة الفرد تقدم للقوانين المنطقية مادتها الأولى ، وتعبر عنها أولا بلغتها ولكن هذه القوانين تتخلص منها بتراجع جميل إلى جعلها مستقلة وإلى تهيئة الفرد لأن يصوغ المجتمع نفسه فى صيغة موضوعية تتألف من معان وعلامات" [٣٠] .

فالجماعة هى معلمة حيث أن كل فرد منا يكتسب عاداته واتجاهاته ، ومعتقداته وضروب تعصبه من يوم ولادته إلى الآن من مجتمعه " [٣١]، فالإنسان حيوان اجتماعى يعيش مع الآخرين بمعنى إنه يظهر دافعاً اجتماعياً لتكوين أنواع من البناء الاجتماعى أكثر تعقيداً ، ويحدث النمو فى الشخصية الإنسانية من هذا النسيج المعقد من التنظيمات الاجتماعية بطريقة تجعل من أنماط العادات ونظم القيم التى تكون عاملاً مساعداً للفرد على أن يعيش فى مجتمعه الخاص .

إن قدرة المجتمع التربوية لا تتحقق خلال التعليم الشكلى (كقراءة كتب التربية الوطنية أو الاجتماع) ولكن عن طريق الإسهام الواقعى للفرد كمواطن فى حياة المجتمع فاحترام القوانين والاعتراف بسلطة المجتمع يمكن أن يتعلمها الصغار فى وقت مبكر عن طريق ملاحظتهم للكبار"[٤].

---

[٢٩] المرجع السابق ، ص٥٣ .

[٣٠] المرجع السابق ص ٥٣.

[٣١] اليس ويتزمان ، التربية الاجتماعية للأطفال ، ترجمة فؤاد البهى السيد ، سلسلة دراسات سيكولوجية ، القاهرة : دار الطباعة ، ١٩٦٥ ، ص ١١ .

[٤] فينكس " فلسفة التربية " مرجع سابق ، ص٣٤٢.

" فالجماعة تبدو كأنها معلمة الفرد " [٢] . ويحاول المجتمع كمرب أن يستمر وجوده من جيل إلى جيل ، فالهدف الأساسي من التربية هو أن تنقل للصغير الثقافة الاجتماعية من خلال عملية التنشئة الاجتماعية . ولالاند يتحدث أيضا عن تضام للجماعات الأسرية ويعارض بهذا سبنسر الذى يؤكد بفضل قانونه فى التطور أن التنوع الأسرى لابد أنه صدرعن مجانسة أولية وتعميم التعليم العام وانتشار المدارس التى تنشئها الدولة ، ينتزع الأولاد شيئا فشيئا من التوجيه المطلق للأسرة ابتغاء جعلهم تحت إشراف الجماعة " [٣] .

ويتحدث لالاند عن التقدم الاجتماعى باعتباره ينحو نحو التشابه فالمجتمعات تتجه نحو التشابه ويساعد على ذلك : " الترجمات تنقل باستمرار من لغة إلى آخرى المؤلفات المختلفة ، ومقالات الصحف ، والخطب والعلاقات الصناعية والتجارية ... ، وينتج عن هذا أنه ليس فقط كل الألفاظ الاصطلاحية المخترعة تصير مشتركة تماما بل وأيضا تنتقل العبارات الخاصة من بلد إلى آخر شيئا فشيئا ... وبالتالى فالتقدم ينحو نحو التشابه "[٣] .

المجتمع إذن يتجه نحو الوحدة والتشابه وإزالة الفوارق والطبقات داخل المجتمع . كما أن المجتمع العالمى كله يتجه نحو التشابه ، والعقل يعمل دائما إلى التقريب بين الناس وإلى تكوين مجموعة من الحقائق تؤلف تراثا مشتركا بين الجميع " [٤] .

---

[٢] لالاند " محاضرات فى الفلسفة " ، مرجع سابق ، ص ٥٣.

[٣] بنروبى " تيارات ومصادر الفلسفة فى فرنسا " ، مرجع سابق ، ص٩٢ .

[٣] المرجع السابق ص ٩٣ .

[٤] يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الحديثة " ، مرجع سابق ، ٤٥٣ .

فالحياة عند لالاند فى تطور مستمر ، هذا التطور ينتقل من الاختلاف إلى التشابه ، ومن الكثرة إلى الوحدة ، فالعقل يعمل على الانتقال من الكثرة إلى الوحدة والانتقال من الاختلاف إلى المتشابه . وكذلك المجتمع ينتقل من الاختلاف إلى التشابه . والتربية هى التى تعمل على نقل المجتمع من الاختلاف إلى الوحدة والتشابه ، ويساعد ذلك الوسائل الآتية من مدارس وترجمة ومؤلفات ومقالات وصحف وخطب ، وحتى العلاقات التجارية والصناعية ، والتربية تهدف إلى إيجاد مجتمع الوحدة المتشابه "وهذه الاعتقادات هى التى حملت لالاند على التعاون مع لوى كوتيرا فى تكوين اللغة الدولية (أيدو) " Ido " ونشرها " [1] . ، وكذلك إنشاء (معجم الفلسفة) ، ولالاند فى دراساته فى الفلسفة الأخلاقية والتربية يسعى لتطبيق نظرية التضام على الواقع العملى بإبراز ما هو مشترك فى كل القواعد الأخلاقية ، ومن هنا نفهم لماذا يعتنى لالاند بتشجيع التقارب بين العقول من أجل إيجاد مجتمع الوحدة المتشابة ولذلك نادى لالاند بضرورة " العمل على تقليل الفروق بين المواطنين ، وهى الفروق التى يولدها اختلاف الطبقات والوظائف ، ومحاربة كل استغلال وكل ما ينجم عنه من عدم مساواة وإشراك الشعب كله بقدر الإمكان فى الحياة العقلية وفى ثقافة العقول الأكثر نمواً ونضوجاً " [2] . فالتربية هى الوسيلة الهامة التى تعمل على تحقيق هذا التقارب بين العقول ، ومن خلال إشراك كل الشعب فى الحياة الثقافية والأخلاق والفنون والعلوم التى تعمل على تحقيق هذا التطور الذى يهدف إلى الوحدة التى تقوم على التشابه بين الأفراد ويصبح الهدف الأكبر للتربية عند لالاند هو إقامة هذه

---

(1) بنزوبى " تيارات ومصادر الفلسفة فى فرنسا " ، مرجع سابق ، ص٩٩ .

(2) المرجع السابق ، ص ٩٥ .

الوحدة العالمية بين البشر ، والتربية هى الوسيلة التى تستطيع ان تحقق هذا الهدف ، ويشير لالاند إلى أهمية المعلم فى العملية التعليمية وكذلك اللغة ودورها فى التربية والتعليم وهذه هى النقطة التالية .

٣ - أهمية اللغة فى التعليم عند لالاند :

ويرى لالاند أن اللغة هى جزء من التراث الثقافى للجنس البشرى ، وتنتقل من جيل إلى جيل عن طريق التربية ، ولذلك فإن من القدرات الهامة التى يجب أن تنميها التربية لدى الإنسان القدرة على استخدام اللغة .

ويتحدث لالاند عن الأهمية الكبرى لوضوح اللغة فى التعليم مشيراً إلى تجنب أنواع الأخطاء اللغوية فيقول : " فإذا أردنا أن نحصى أنواع الأخطاء فى اللغة نجد أنها ترجع إلى خطأ منطقى ، وإما إلى خطأ فنى بل أحيانا إلى خطأ خلقى كالغموض والإبهام وعدم المطابقة ، وهى تحول دون فهم المراد ، أو تقتضى جهداً لفهمه ، وذلك يكلف الناس عناء لا خير فيه " [٢] .

والإنسان يعيش مع الآخرين ويتعلم منهم اللغة ، ولذلك من يعيش فى مجتمع إنجلترا يتعلم اللغة الإنجليزية ، ومن يعيش فى الصين يتعلم اللغة الصينية وهكذا ، ولالاند يرى أن التقدم البشرى يتجه نحو التشابه وأن هناك لغة كلية هى لغة كل البشر ، " الألفاظ الاصطلاحية المخترعة صناعياً تصير مشتركة تماماً ، وبل أيضاً تنتقل العبارات الخاصة شيئاً فشيئا من بلد إلى بلد ، متخذة مكانها فى اللغة الكلية "[٣] . وكما تعاون

---

[٢] لالاند " محاضرات فى الفلسفة" ، مرجع سابق ، ص ٤٣ .

[٣] بنروبى " مصادر وتيارات فى الفلسفة المعاصرة فى فرنسا " مرجع سابق ، ص ٩٣ .

لالاند مع لوى كوتيرا فى تكوين اللغة الدولية " أيدو" Ido ، وكما أشار لالاند إلى أهمية اللغة باعتبارها أهم وسائل الاتصال بين الناس ، بالإضافة إلى أهميتها فى التعليم والتعلم ، فالمعرفة والعلوم والآداب يتم تعليمها من الآخرين وإلى الآخرين عن طريق اللغة .

٣- الفروق الفرديد عند لالاند :

وإذا كان لالاند أكد على أن الفرد هو جزء من المجتمع وأن المجتمع يلعب دورا كبيرا فى تربية الأفراد ، فإن لالاند يرى إن هناك فروقاً فردية بين الأفراد فيقول لالاند أولاً " إن كل إمرىء ولد فى يوم كذا وفى مكان كذا فإننا نستطيع أن نلاحظه منذ ولد إلى أن يموت متتبعين نموه وانتقالاته وما يحدث فى حياته . ثانياً مجموعة الخصال اللازمة له فى شخصه المادى والمعنوى كمزاجه وحاسته وذوقه وأفكاره ، وكل ما من شأنه أن يقضى بأن لا سبيل إلى أن يوجد فى الحياة اثنان لا يمكن التمييز بينهما ... كل ذلك يكون فيه خلقاً فريداً ويجعل له موقفا وحيدا يطبع فرديته بطابع خاص ويسم شخصه بسمة ظاهرة " [١] .

الخلاصة أن هناك فروقاً بين الأفراد فى الجوانب الجسمية والعقلية والوجدانية والنفسية وعندما ننتقل إلى التربية نجد أن هذه الفروق الفردية تلعب دوراً كبيراً في تربية وتعليم الأفراد صغاراً كانوا أو كباراً فالتلاميذ في الفصل ليسوا متساوين فيما يملكون من صفات وخصائص جسمية وعقلية رغم تقاربهم في السن ، وهذه الفروق تؤثر علي كفاءة وأداء التلاميذ من الناحية التربوية فقد يوجد بينهم من الأطفال من هو سريع

---

(١) لالاند " محاضرات فى الفلسفة " (مرجع سابق) ص ٤ .

التعلم ومن هو بطيء التعلم وينبغي علي المدرس أن يتخذ دائماً موقفاً ملائماً لهذه الفروق بين التلاميذ ، فبعض التلاميذ يستطيع في سهولة أن يتابع الدرس ويركز انتباهه ، ويصل مع المدرس إلى النتيجة. في حين يعجز آخرون عن تركيز الإنتباه ويرجع ذلك إلى تفاوت بينهم ويتطلب من المدرس أن يغير أحياناً من طريقته في التدريس لتلائم هذه الفروق ، وقد يضطر أحياناً إلى تفريد التعليم أي يعمل مع كل تلميذ وفقاً لاستعداداته وقدراته العقلية والجسمية من أجل إنجاح العملية التعليمية ، وتتضح الفروق الفردية بين الأفراد في استجاباتهم إزاء الخبرات الجمالية والفنية التي يتعرضون لها فقد يستجيب بعض التلاميذ لنغمات من الموسيقى مثلاً علي أساس كونها نغمات غليظة أو حادة مرتفعة أو منخفضة فبينما يستجيب فريق آخر من التلاميذ إلى النغمات ذاتها بالإحساس بدفئها ورقتها وتأثيرها الملطف " [٩] .

ويتحدث لالاند عن الفن بوصفه عاملاً من عوامل التواصل بين الأفراد وماله من قوة في التقريب بين الأفراد ورغم أنه يعترف بوجود هذه الفروق الفردية ، إلا أنه يرى التقدم البشرى يعنى الاتجاه نحو التشابه وإزالة الفروق الفردية بين الأفراد وبين المجتمعات ، وقد أشرنا إلى علاقة الطبيعة الإنسانية والطبقات الاجتماعية وفي ذلك الموضع يرى لالاند وغيرة من الفلاسفة المعاصرين المثاليين " إن من المبادىء الهامة في التربية والتعليم مراعاة الفروق الفردية بين الأفراد فيجب على

---

[٩] جركرود دريسكول ، كيف تفهم سلوك الاطفال ، ترجمة رشدى فام منصور : مجموعة الكتب الدراسية والمراجع الأمريكية المترجمة – القاهرة – طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ص أ٢، ٢٢ .

المدرس أن يدرك ويتدرب على التعامل مع قاعدة الفروق الفردية بين الأطفال فى المدرسة "[١]".

ثالثاً : موقف لالاند من ثنائية الطبيعة الإنسانية من منظور تربوى :

ويتحدث لالاند عن الثنائية فيقول " حقاً إن فى الإنسان ثنائية فهو حيوان من جهة ومدنى من جهة أخرى "[٢].

ويقول بنروبى " ولالاند يجد الثنائية التى تبقى على نحو ما خارجة عن المادة الخام بل وعن الحيوان تصير باطنية فى الإنسان "[٣] ، ويقول أيضاً " فى دروسه عن العقل المكون والعقل المتكون ينظر لالاند فى وجود طبيعة عالية وطبيعة سافلة فى الإنسان وحق الأولى فى السيادة على الثانية "[٤] .

ويعيب لالاند على مذهب التطور قائلاً إنه " يتجاهل ثنائية الإنسان "[٥]. ومن هنا فإن لالاند ينظر إلى الإنسان على أنه ثنائى أي عقل وجسم والعقل أسمى ولذلك فهو له حق السيادة على الجسم ومن هنا فإن التربية تركز على العقل والروح ، وبصفة عامة فان المثاليين يعتقدون أن الفكر هو الواقع الصحيح سواء كان فى الوجود أو فى الإنسان ولكن ليس كل المثاليين يرفضون المادة ولكن وراء عالم المادة عالم الفكر وهو

---

(٥) Milly Cowles " perspectives in the Education of disadvantaged Childern" London, International Textbook, Co. 1969, P.294.

(١) لالاند "محاضرات فى الفلسفة" مرجع سابق ، ص ١٥٦.

(٢) بنروبى " مصادر وتيارات الفلسفة فى فرنسا " مراجع سابق ، ص٩٤.

(٣) المرجع السابق ص٩٧ .

(٤) يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الحديثة" مرجع سابق ص٤٥٣.

عالم الحقيقة " [1] ، والتربية الصحيحة التى تهدف إلى تنمية العقل وتهذيب الروح " فالفيلسوف المثالى يؤكد على أن العقل والروح أهم صفات الإنسان وهذا السبب هو الذى قاد بعض المثاليين إلى أن يركزوا تماماً على تربية الفرد " [2]. ولذلك فإن التدريس يتجه نحو تعليم الأفكار من خلال استعمال المناهج الكلاسيكية والكتابات والفنون " [3]. وبالتالى التربية تركز على الفن والعلوم النظرية التى تقود الدارس للفلسفة والرياضة " ولذلك فإن المثاليين لا يؤكدون على دراسة الطبيعة ... بل الهدف الأسمى للتربية أن توجه الفرد إلى البحث عن الحقيقة الروحية ، والبحث عن الحقيقة الروحية هو نفسه البحث عن الله ، والتربية الحقيقة هى التى تقود الإنسان إلى الله ، وبالتالى فهى تربية تتعلق بالأفكار لا بالمادة " [4]. إذن الإنسان مركب من عقل وجسم من روح ولحم ، وليس هذا التقسيم للإنسان إلى عقل وجسد إلا فرعاً من ذلك التقسيم الثنائى للكون وأن النتائج التربوية التى تنجم عن اتباع النظرية الثنائية فى طبيعة الإنسان ليست صعبة التصور ، "وإن هذه النظرية تقود الكثيرين إلى التمييز بين نوعين من التربية : نوع عقلى لتفسير المظاهر العقلية ، ونوع ديناميكى لشرح المظاهر الجسدية ، وتظل التربية فى أساسها فى كلا الطرفين تدريباً للعقل وتمريناً لملكاته [5] .

---

(1) Howord Ozman, Samuel " Philosophical Foundution of Education " p.4.

(2) Ibid .p.18 .

(3) I bid .p.23.

(4) I bid . p. 16.

(5) JOHNS. BRUBACHER. " Modern Philosophles of Education. " p. 45 .

"ولما كان العقل أو الروح هو الذى يبعث الفاعلية فى الجهاز العصبى العضلى للجسم فإن هذا العقل هو الذى يبذل المربون جل جهدهم فى الاهتمام به" [1].

وقد وجه إلى النظر إلى ثنائية الطبيعة الإنسانية عدة انتقادات من الناحية الفلسفية والتربوية ، ومشكلة الفيلسوف المثالى أن ينظر إلى الإنسان على أنه روح وجسم والروح خالدة ، فإذا كانت الروح خالدة فإن طبيعة الروح غير طبيعة الجسم ، فالروح يمكن أن تستقل بذاتها ولكن الجسم لا يمكن أن يفعل ذلك ، فالمثالى يرى أنه قد توجد صورة بدون مادة ، ولكن الواقعى يرى أن الصورة لا يمكن توجد إلا فى المادة، فمشكلة الثنائية ترتبط بالخلود الروحى ومن يذهب إلى الثنائية فهو يذهب إلى خلود الروح ومن ينكره فهو مضطر إلى إنكار الخلود الروحى ولكن من الناحية التربوية تواجه الثنائية العديد من الصعوبات ، فالنتائج التربوية للنظرية الثنائية فى طبيعة الإنسان ليست بريئة من التضارب فالإنسان لا يستطيع إن يذهب إلى المدرسة إلا بعقله وجسمه" [2]، وبعد هذا العرض لقضية الثنائية وانعكاساتها التربوية فإن الدراسة تنتقل إلى دراسة الطبيعة الإنسانية بين الخير والشر عند الفلاسفة المعاصرين .

رابعاً : الطبيعة الإنسانية بين الخير والشر :

١- ثمة خلاف بين الفلاسفة حول طبيعة الإنسان فمنهم من نظر إلى الإنسان نظرة تشاؤمية ، فرأى أن الإنسان شرير بطبيعته يتصف بالجهل والفوضى والكذب والأنانية والغش ، فهو ليس حيواناً مدنياً بل هو همجى

---

(1) Ibid . p. 45.

(2) I bid . P.45.

متوحش ، ينفر من النظم والقوانين ، ويسعى وراء مصلحته حيثما توجد ، وخير من أشار إلى هذه النظرة التشاؤمية الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز ، فهو يرى أن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان ، وأن الكل فى حرب ضد الكل ، وقد اعتنق هوبز النزعة المادية ، ففسر العالم وأحداثه بالمادة واستبعد الروح ، ولواحقها وأنكر وجود النفس مستقلة عن الجسم ، وبهذا يبدو الإنسان فى مذهبه أنانيا بفطرته ينفر بطبعه من الاجتماع بغيره من الناس ، أو كما قال هوبز : إذا هم برحلة سلح نفسه ، إذا أسلم عينيه للنوم أغلق أبوابه ، وحتى إذا استقر فى بيته أقفل دواليبه ، وهكذا بدأ الإنسان عنده ذئبا لأخيه الإنسان لا يتردد القوى فى الاعتداء على الضعيف [١].

ولم يكن هوبز وحده الذى يرى أن الإنسان شرير بطبيعته ، ولكن هناك الفيلسوف الألماني شوبنهور الذى يرى أن " الحياة شر وكل ما نصادفه من خير فهو زائف ، وإذا كنا نتصور الحياة خيرا ... فهذا راجع إلى ما تبهرنا به الإدارة الكلية من خيرات مظنونة وتثير فنيا من آمال كاذبة [٢].

ويرى شوبنهور أن المجتمع قائم على الخديعة والزيف ، وكل إنسان يتخذ له قناعا خاصا يستر به حقيقته ، ويدارى به ما بنفسه من شرور وأحقاد فالبعض يتخذ قناع الدين ، والبعض يلبس قناع الوطنية ، أو التظاهر بالفضيلة وبين جنبى كل إنسان تقيم أنانية ضخمة غلابة تجتاح حدود

---

[١] توفيق الطويل " فلسفة الأخلاق " القاهرة ، دار النهضة العربية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٦ ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

[٢] يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الحديثة " مرجع سابق ص ٢٩ .

الحق وتكتسح أسوار العدل فى حرية تامة ، وفى غير تردد ، ونشـــاهد ذلك بصورة مصغرة فى حياتنا اليومية ، ونراه فى الصورة مكبرة بكـــل صفحة من صفحات التاريخ ، ويشد أزر هذه الأنانية الكامنة فى كل نفس نبع من الكراهية الحقد والضغينة والخبث فياض الموارد طاغى العباب ، وفى قلب كل إنسان يرقد حيوان متوحش شديد الضراوة ينتظر فريســته ليزلزل زلزاله ويثير زوابعه "[1]. ويقول شوبنهور: " الحياة شر وكل ما تصادفه من خير فهو زائف "[2]. وفى الفكر العربى نجد الأديب المفكـــر أبا العلاء المعرى الذى كان سيىء الظـــن بالطبيعـــة الإنســـانية شـــديد الازدراء لها ، بار عًافى الكشف عن عيوبها ، فيصورها على أنها تتميز بالقوة والسوء ويقول :

وكلنا قوم سوء لا أخص به ... بعض الأنام ولكن أجمع الفرقا

وهو يعلل لؤم الإنسان وخسته وحقارته ، بفساد الأصل والتواء الغريـــزة فيقول :

تفرع الناس عن أصل به درن ... فالعالمون إذا ميزتهم شرع

ويذهب إلى أن الإنسان أنانى بطبعه خبيث حاقد فيقول :

بنى حواء كيف الأمن منكم ... ولم يؤهل بغير الحق روع

ويذهب أبو العلاء مذهب هوبز فى النظر إلى الإنسان على أنـــه ذئـــب لأخيه الإنسان فيقول :

وجدت الناس فى جبل وسهل ... كأنهم الذئاب أو السباع

---

[1] على أدهم " بين الفلسفة والأدب " القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٨ ص ٢١ .

[2] يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة (مرجع سابق) ص ٢٩٥ .

وإذا كان الإنسان أنانياً وشرير بطبيعته ويتصف بالرياء والنفاق والفوضى والظلم والكذب ...فلا بد من تهذيب أخلاقه وتقويم طباعه ومهمة التربية تعديل سلوكه الهمجى إلى سلوك أرقى وتنمية قدراته والسمو بالروح إلى عالم أفضل . وتكون مهمة المعلم تعليم الطفل حب الأشياء الحسنة دون النظر إلى ميول المتعلم ، ويستغل المعلم هذه الميول الشريرة فى تحقيق مهمة التربية " [٨]. ويرى كروتشه أن الحياة هى كفاح دائم ضد الشر وصراع دائب فهو يقرر مع هيجل لا مع أفلاطون أن الشر " لا وجود " بمعنى أنه المحرك الدائم للحياة الروحية وما الحياة ــ فى نظره ــ سوى كفاح مستمر ضد الشر ، ووصول تدريجى إلى الخير والحق أن كروتشه يتصور الحياة على أنها صراع دائب وجهد مستمر لا مجرد تحسر فارغ على المثل العليا ، أو مجرد حنين أجوف إلى بعض المدن الفاضلة وليس من شأن " الشر" سوى أن يكون بمثابة حافز يدفعنا إلى العمل على النضال المستمر من أجل إبداع الخير وتحقيق القيم . فالحياة الأخلاقية (فى نظر كروتشه) حياة عملية جادة ، تنصرف عن كل " صوفية ، وتعزف عن كل ميل إلى الزهد أو التقشف، وتنفر من كل دعوى الى الطهارة السلبية ، وكأن الأخلاق مجرد عواطف طيبة نبيلة ، وأهل الأخلاق ــ فى رأى فيلسوفنا ــ إنما هم أولئك الذين لا يخشون أن يدنسوا مثلهم العليا بما فى العالم من خبث وشر وخطيئة ، بل يجعلون من حياتهم الأخلاقية صراعاً مستمراً ضد الشر فالحياة الخلقية تعتمد على النضال المستمر من أجل إبداع الخير وتحقيق القيم وذلك لأن الحياة كفاح وصراع بين الخير والشر ، والحياة الروحية انتصار للخير وغزو لميدان الشر ولا مناص من الاصطدام المستمر،

---

(١) على أدهم " بين الفلسفة والأدب " مرجع سابق ، ص ٢١ ، ٢٢ .

والتغلب على القوى المضادة للخير ، والتربية هنا هى غزو لميدان الشر – كما يرى كروتشـــه – بل هى نضال مستمر من أجل تحقيق الخـــير ، فالخير والشر فى صراع مستمر ، والتربية الصالحة هى التـــى تغلـــب نوازع الخير فى الإنسان على نوازع الشر.

٣- الإنسان خير بطبيعته :

وهناك اتجاه آخر على العكس من الاتجاه السابق ينظـــر إلـــى الطبيعـــة الإنسانية نظرة تفاؤلية فيرى أن الإنسان خير بطبيعته ، ويـــتزعم هـــذه النظرية الفيلسوف جان جاك روسو فى نظريته عن الخير الفطرى عنـــد الانسان " حيث يرى روسو أن الإنسان خير بفطرته ، ولا يتحول إلـــى الشر إلا نتيجة للظلم والضغوط التى يفرضها عليه المجتمـــع "[١] . وإذا كان الإنسان حيواناً اجتماعياً ، كما قال أرسطو فإن الإجتمـــاع مفســـدة فيزعم روسو " أن العلوم والآداب والفنون ... أنها كلما تقدمت أمعنت فى إفساده " أى الإنسان ويستشهد بمصر القديمة وأثينا وبيزنطة والصيـــن إذ مالت إلى الانحطاط أو غاصت فى الرذيلة حالما ساد فيها حـــب العلـــوم والفنـــون ، إنها تولد الرذيلة لأنها تطيل الفراغ ، وتدفـــع إلـــى الـــترف وتنميه ، ويقول روسو : " أيتها الفضيلة أنت العلـــم الســـامى للنفـــوس الساذجة : أهنالك حاجة لكل هذا العناء ، وهذه الأدوات لكـــى نعرفـــك ؟ أليست مبادئك مطبوعة فى جميع القلوب ؟ أو ليس يكفى لتعلم قوانينك أن نخلو الى أنفسنا ونستمع الى صوت الضمير فى صمت الأهواء ؟ " [٦١] .

---

[١٠] T.Raymont "A History of The Education" London Longmans, green and , Co. 1937.P.22.

(١) يوسف كرم ، مرجع سابق ، ص ٢٠١.

والحرية هى التى تميز الإنسان فهى تبين روحانية الإنسان عند الشعور بهذه الحرية ... وبالتالى فقد أخطأ هوبز ــ فيما يرى روسو فى قوله : إن حالة الطبيعة تتميز بالطمع والكبرياء فإن هاتين العاطفتين لا تنشأن إلا فى حال الاجتماع ، فالإنسان المتوحد الذى كان يحيا حياة طبيعية كان كاملا سعيدا لأن حاجاته قليلة وإرضاءها سريع ، ولأنه كان حرا مستقلا فكان كل إنسان مساويا لكل إنسان ، ولكن الإنسان ينتقل من حالته الطبيعية إلى مرحلة الاجتماع بالآخرين ، وهكذا تحولِ الإنسان الطيب بالطبع إلى شرير بالاجتماع ، وعلى أن الاجتماع قد أضحى ضروريا ، ومن العبث محاولة فضه والعودة إلى حال الطبيعة ، وكل ما نستطيع صنعه هو أن نصلح مفاسده بأن نقيم الحكومة الصالحة ونهيئ لها بالتربية المواطنين الصالحين [٨].

وإذا كان الإنسان بفطرته خيرا ، فالتربية هى الرجوع إلى الطبيعة فيترك الطفل يربى نفسه بنفسه ، وبذلك ينشأ حرا جديرا بأن يكون عضوا فى دولة حرة ، وما من وسيلة لتربية الطفل لأجل الحرية إلا تربيته بالحرية ، وهذا يعنى أن التربية يجب أن تكون سلبية ما أمكن فتقتصر على معاونة الطفل فى تربيته نفسه بنفسه ، وتجتنب كل ما يضيق عليه ويقيده على أن المربى لا يقف متفرجا إذا رآه – أى الطفل – يعرض حياته للخطر بلغه بتجربته بل ينبهه وينهاه بقوة . وبرنامج التربية يشتمل على أربع مراحل هى :

---

(٨) المرجع السابق ص ٢٠١ ، ٢٠٣ .

حياة الطبيعة والحياة العقلية ، الحياة الخلقية والحياة الدينيـــة " [1]. فقـد أعلن روســو فى كتاب "إميل" إيمانه بطبيعة الطفل عن طريق تسليته .

وإذا كان بازيدو Basedow يذهب إلى تعليم الطفل عن طريق تسليته وإذا كان لاشالوتيه La Lhalotain يذهب إلى أهمية الإنتقال مـــن الدراســات المجردة إلى الدراسات الشيئية المحسوسة ، ويهتم بتعليم الطفـــل نفســه بنفسه ، فإن روسو يجمع بين هذا وذاك فى مبدأ عـــام شـــامل " اتبـــاع الطبيعة " والتربية يجب أن توآم بين الطبيعة والنـــاس والأشـــياء وهـــى العناصر الثلاثة التى أسند إليها روسو عملية التربية ، والتـــى يجـــب أن تنسجم بعضها مع بعض كل الانسجام" [2]. " فإميل كان يشجع علـــى أن يسخر القوى الطبيعية والفيزيقية لمصلحته ويستخدمها فيما فيه فائدتـــه ، فليست الشمس السبب فى إحداث صراع له فحســب بل وسيلة ممكنة مـــن الاستكشاف فى الغابات وتيسر له الإفلات منها إذا ما ضل طريقه فيها ، وليست النار تحرق فحسب بل هى تعاون الإنسان على استخراج المعادن من كنزها .

ويكون تحصيل المعانى النافعة عن طريق الاتصـــال بمواقـف الحيـاة اتصالاً شخصياً " [3] ، فالإنسان عند روسو طيب وخير بطبيعته ، ولكن ما يفسده هو المجتمع بما فيه من حضارة ويمكن إصلاحه بالتربيـــة وإذا كان الإنسان خير بطبيعته فان التربية هى تنمية لقواه الطبيعيـــة وقـوام التربية العودة للطبيعة .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٤ .

(٢) محمد مصطفى زيدان " مفهوم الحرية فى التربية الحديثة " القاهرة ، النهضة المصرية ، بدون تاريخ ، ص ٦٨ - ٧٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٣ .

٣ – ابن طفيل والطبيعة الخيرة :

وفى الفلسفة الإسلامية نجد الفيلسوف ابن طفيل فى قصة حى بنى يقظان يصور لنا حياً وهو طفل تربى فى جزيرة بعيداً عن الناس لأن أمه وضعته فى تابوت ونقله الماء إلى ساحل البحر ، ولكن ظبية سمعت صوت هذا الطفل ، فأخذته إلى داخل الجزيرة التى عاش فيها حى مع الظبية التى حملته ، وغذته وربته ، ودافعت عنه ، ويقول ابن طفيل :

" ولم يكن بهذه الجزيرة شىء من السباع العادية ، فتربى الطفل واغتذى بلبن تلك الظبية ، وكانت هى ترفق به وترحمه ، وتحمله إلى مواضع فيها شجر وثمر فكانت تطعمه ، وكان حى يحاكى جميع ما يسمعه من أصوات الطير وأنواع سائر الحيوان محاكاة شديدة لقوة إنفعاله لما يراه " [١] .

ولما بلغ حى من عمره العام السابع بدأ يتعلم من الطبيعة كيف يقلد الحيوانات فى أصواتها وحركاتها ولكنه وجد " أن مخارج الفضول من سائر الحيوان مستورة بالأذناب " " فقد اتخذ من ورق الاشجار العريضة شيئا جعل بعضه خلفه وبعضه أمامه" [٢]. وحينما شاهد النار تعجب منها " ومازال يدنو منها شيئا فشيئاً فرأى ما للنار من الضوء الثاقب والفعل الغالب ... وأراد أن يأخذ منها شيئا فلما باشرها أحرقت يده " [٣]. ثم تعلم من النار أنها تحرق جسمه ، وأنها تضيء له فى الليل فهى تقوم مقام الشمس فى النهار " . وهكذا أصبحت الطبيعة المعلم الأكبر للإنسان،

---

(١) عبد الحليم محمود " فلسفة بن طفيل " القاهرة ، مطبعة الدار المصرية ، ١٩٧٨ ، ص ١١٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١١١ ، ١١٢.

(٣) المرجع السابق ص ١١٢.

وابن طفيل ينظر للإنسان نظرة خيرة مثله مثل روسو ، وحينما كبر حى وذهب الى خارج الجزيرة عاد إليها مرة ثانية ليعيش وحده بعيداً عن الناس ، وقال ابن طفيل : إن المجتمع أيضاً فساد ، شأنه فى ذلك شأن جان جاك روسو .

٤- نقد برنشفك لجان جاك روسو :

وكذلك نجد الفيلسوف الفرنسى برنشفك يرى أن الطبيعة الإنسانية خيرة "ولكن من الخطأ أن نستنتج من ذلك ــ كما فعل روسو ــ فساد الجنس البشرى أو الحضارة الإنسانية بل كل ما هنالك أننا لم نستطيع بعد أن نحقق فى أنفسنا القدر الكافى من المدنية أو الحضارة " (١) ، وبرنشفك هنا يعارض روسو حينما ذهب روسو إلى فساد المجتمع بما فيه من حضارة تشمل العلوم والفنون والآداب فإن برنشفك يؤمن بأن العلوم والآداب والفنون هى التى تهذب الإنسان .

" والحق أنه لا سبيل إلى تحقيق الوعى الخلقى ، والوعى الدينى اللهم إلا إذا تسنى لنا أن نحرر الإنسان من آرائه المبتسرة الحافلة بالأنانية وتقاليده الزائفة القائمة على الإيمان الحرفى " (٢) .

فالعلوم عند برنشفك تغرس روح النزاهة فى المتعلم ، كما أن من شأن الفن أن يبث فى الإنسان روح التعاطف والمشاركة ، وكذلك العلم يعمل على التسامى بنا نحو مستوى الوحدة البشرية الشاملة ، فإذا كان روسو يذهب إلى أن العلوم والآداب والفنون والحضارة عامة تكمل ظاهر

---

(١) زكريا ابراهيم " الفلسفة المعاصرة " ، مرجع سابق ص ٩٧.

(٢) المرجع السابق ص٩٦ .

الإنسان فقط ولا تكمل باطنه بل إنها كلما تقدمت أمعنت فى إفساده ، فان برنشفك يرى أن صلاح المجتمع فى تقدمه وتطوره ، بأن تقوم التربيـــة بدورها الفعال فى غرس الروح العلمية ، والتفكير العلمى فى أنفسنا أولاً، وبث روح التعاطف والمشاركة ثانياً ، وتربيه الإرادة ثالثاً والأول هـــو دور العلوم ، والثانى هو دور الفنون ، والثالث هو دور الأخلاق من أجل تحقيق الوحدة الإنسانية الشاملة التى يأمل برنشفك تحقيقها فـــى الحيـــاة، ولذلك تسير التربية عند برنشفك فى ثلاثة محاور أساسية هى :

١- التربية العقلية .

٢- التربية الخلقية وهى تربية الإرادة الإنسانية .

٣- التربية الوجدانية .

وبذلك تكون تربية الإنسان عند برنشفك تربية شاملة للإنسان من الناحية العقلية والجسمية والروحية .

وصفوة القول : إن من ينظر إلى الإنسان على أنه فى أساســه شـــرير ، فإن هدف التربية الكامل أن يكبت الدوافع الطبيعية الشريرة ، وأن يحـــل محلها دوافع مقبولة ، إذن يصبح هدف التربية أن تقدم للأفـــراد وســـائل تغطية هذا الشر الداخلى بمظهر خير [١٠] ، بل أفضل ما تفعله التربية أن تسيطر على القوى الغضبية الشريرة فى الإنسان بالإضافه إلـــى تعليـــم الطفل حب الأشياء الحسنة التى يجب أن يحبهـــا ، وأن المعلـــم ســـوف يستغل هذه الميول الطبيعية من أجل تحقيق مهمة التربية [١١] .

---

(١٠) فيليب هـــ. فينكس " فلسفة التربية " ترجمة محمد لبيب النجيحى ، القاهرة ، النهضة العربية ، ١٩٦٥ ص٨٦١ .

(١١) John S. Brubacher . " Modern Philosphies of Education . London . McGraw Hill Book , 1950. P.66.

والاتجاه الثانى : الذى ينظر للإنسان على أنه خير ، فإن وظيفة التربية هنا الاعتراف بهذا الخير وتشجيعه ، والقاعدة الأساسية فى التربية هى قبول الفرد بطبيعته ، وتنمية ميوله ، وأن الإنسان إذا ما أتيحت له الظروف الخيرة فإنه ينجح ويحقق ذاته ، وهنا تعمل التربية على تهيئة الظروف المناسبة لنمو الأفراد ، فإذا كانت الطبيعة الإنسانية خيراً فى أصلها وأساسها ، فالنتيجة عندئذ هى أن على المعلم أن ينظر إلى الميول الطبيعية لدى الطفل على أنها خير فى أساسها ويكون عليه كذلك أن يجعل أهداف التربية انعكاسا لهذه الميول الخيرة ، وأن يكون المنهج وسيلة لإطلاق هذه الميول والعمل على تنميتها ، ثم يكون على المعلم أن يمنح حرية كافية للطفل فى المشاركة فى اختيار المناهج التى سوف يتعلمها ذلك الطفل خوفاً من حدوث ما يؤذى ذلك الخير الكامن فى طبيعته [1] .

خامساً : التربية الروحية :

وتؤكد المثالية المعاصرة على أن الإنسان ذو طبيعة روحية فيتحدث برنشفك عن الروح ، ويعتبرها مصدراً للجمال. والدين هو أعلى توكيد لحقيقة الروح فيقول : إن الحالة الشعورية التى أعدتها الحالة الدينية الصحيحة وحدها دون سواها إنما هى حالة تلك الروح التى تريد نفسها وتحس فى قرارة نفسها أنها أسمى من كل وجود حسى ، وتسعى فى الوقت نفسه سعياً حراً نحو حالة مطلقة من النقاء والروحانية "[2]. ويستشهد برنشفك بعبارة ديكارت " أن لدى فى قرارة ذاتى

---

(1) Ibid , P.66 .

(2) زكريا ابراهيم " دراسات فى الفلسفة المعاصرة " ص٩٩ .

أولوية لفكرة اللامتناهى على فكرة المتناهى ، وبالتالى فإن لله الصدارة على ذاتى "[١] .

والمثالية المعاصر تقترب من الواقعية فيما يتعلق بالاهتمام بالروح الإنسانية وللأسباب كثيرة يدافع المثالى عن الجانب الروحى ليس للإنسان فقط بل للوجود كله ، وعلى ذلك تكون المثالية المعاصرة على العكس من الفلسفة المادية والوضعية والطبيعية "[٢] . والمثالية تؤكد وجود العالم الروحى وترى أن الله هو روح الأرواح ، وتؤكد الخلود فى الحياة الآخرة وأنه يوجد عالم روحى غير العالم الأرضى [٣] . والهدف الأسمى للمثالى هو البحث عن الحقيقة ، والحقيقة روحية فالبحث عن الحقيقة هو نفسه البحث عن الله والتربيه الحقيقية هى التى تقود الإنسان إلى الله ، وقد عبر عن ذلك هرمان هورن Herman Horn حينما ذهب إلى أن التربية هى " تلك العملية التى يتوافق فيها الإنسان الحر الواعى ، الناضج جسمياً وعقلياً مع الله "[٤]. فالوجود الإلهى من جهة ، والوجود الإنسانى من جهة أخرى وعلى الإنسان أن يتوافق مع الله وهذا التوافق يعبر عنه الإنسان فى بيئته العقلية والروحية والخلقية .

وإذا كان بعض المثاليين ــ مثل باركلى ــ رفضوا فكرة وجود جوهر مادى " فإن المثالى المعاصر يؤكد على الحقيقة الروحية ولا ينكر الوجود المادى ، ولكنهم يصفون عالم المادة بأنه متغير وغير مستقر" [٥].

---

[١] المرجع السابق ص٩٩ .

[٢] Loretta " Teaching and Learing " P.72 .

[٣] Ibid , P.75.

[٤] Ibid . P.83.

[٥] Ozman " Philosophical Foundation of Education" P.1,7.

وأن الإنسان روح قبل أن يكون جسما ويكون الهدف من التربية الدينية هو إعداد الإنسان فيكون فى صورة إلهية ، فهى تربية تساعد الإنسان أن يفهم نفسه ويدرك طبيعته الروحية .

ويذهب برنشفك إلى أن الإنسان لم يع نفسه وعيا تاما طالما ظل لا ينظر إلى نفسه على مستوى فوق الطبيعة ، وطالما لم يضع مشكلة الله والنجاة بالله ... وقد فهم الصوفية على نحو رائع أن الحياة الاتحادية (بالله) لا يمكن أن تتحقق إلا عند نهاية مجهود منهجى للحياة الباطنة " [١] .

والحياة الدينية الصحيحة تؤدى إلى ترقى الحياة الأخلاقية فى نفوسنا وبالتالى فإنها لابد من أن تقضى إلى تحول السياسة نفسها إلى " تربية اجتماعية " [٢] ، تكون الحرية منها بمثابة الأهداف النهائية أو الهدف الأقصى . والحق أننا لا نستطيع أن نحقق الوعى الخلقى ، والدينى اللهم إلا إذا تسنى لنا نحرر الإنسان من آرائه المبتسرة الحافلة بالأنانية والتقاليد الزائفة .

حتى تصل الذات الإنسانية إلى حالة من الطهارة والصفاء الروحى ، وذلك من خلال مجهود منهجى منظم . ويرى برنشفك أن صلاح الذات الإنسانية ، وخلاص البشرية يتحقق من خلال تقدم المجتمع و تطوره ، وبدور التربية الفعال فى غرس الروح العلمية ، والتفكير العلمى فى أنفسنا أولا ، و بث روح التعاطف والمشاركة ثانيا وتربية الإرادة ثالثا ، والأول هو دور التربية العقلية العلمية ، والثانية هو دور التربية الجمالية والثالث هو دور التربية الخلقية ، وسوف نعرض ذلك فى الفصل الأخير

---

[١] بنروبى " مصادر وتيارات الفلسفة الفرنسية " (مرجع سابق) ، ص ٤٥٣.

[٢] زكريا ابراهيم " دراسات فى الفلسفة المعاصرة " (مرجع سابق) ص ١٠٢ .

حتى يتبين لنا كيف كانت التربية عند برنشفك تربية شاملة للإنسان من كافة جوانبه .

ويعبر لالاند عن نزعته الروحية للإنسان فيقول : " لو عرفنا الله بأنه الروح الكلية ، والحاكم الأعلى بين الأفراد ومنشيء قوانين الطبيعة فإن العقل هو حضور ما هو إلهى فينا " [٨] ، فالإنسان فى جوهره روح ، وإذا كان الإنسان فى جوهره روحيا فإن التربية يجب أن تدخل فى اعتبارها الروحية ، وأن تشجع نموها فى الأفراد وهذا يتضمن أن التربية يجب ألا تعنى فقط بالاهتمامات العملية المحدودة وإنما يجب أن تنظر أيضا إلى الأفاق النهائية للحياة " [٩]. وينظر لالاند إلى الإنسان على أنه كائن روحى يمارس حريته ، وبالتالى تهدف التربية إلى إشباع الروح وتنميتها وعلى هذا ينظر إلى التلميذ على أنه كائن روحى غايته الرئيسية فى الحياة التعبير عن طبيعته الخاصة ، وهدف التربية مساعدته على القيام بذلك ، وبالتالى يجب أن يتعلم احترام القيم الروحية ،وقيم الأفراد الآخرين . ويرى برجسون أن الذات أو النفس هى فى تطور مستمر لا يتوقف ، وهذه النفس الإنسانية تتميز عنده بأنها ديمومة وذاكرة، ولكننا لا نستطيع أن نعرف طبيعتها وكل ما نستطيع أن نقوله عنها إنها هى الحياة ذاتها" [١٠] .

وتقوم فلسفة برجسون على مبدأين الأول الروحية والثانى التطور ومنهجه واحد هو الحدس ، ولا سبيل لنا إلى معرفة النفس أو الروح إلا بالحدس وذلك حين نسبر أعماق نفوسنا باستمرار فنشعر بذلك التيار الذى نسميه نفسا " [١١] .

---

(٨) نبروبى " مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة فى فرنسا " مرجع سابق ص ٩٧ .

(٩) فينكس " فلسفة التربية " مرجع سابق ، ص ٧٢٦ .

(١٠) برجسون " التطور الخالق " مرجع سابق ص ١٣، ١٤ .

(١١) بول جانيه ، جابريل ثيا " مشكلات ما بعد الطبيعة " ترجمة يحيى هويدى ، القاهرة ١٩٩١ ص٢٩٠ .

وفلسفة برجسون فلسفة روحية ترى الإنسان روحاً لا جسداً ، وهـــى لا تنكر الجسم أو المحسوس ولكن تذهب إلى أن وراء ذلك الحقيقة الحقـــة وهى الروح الخالدة و التى لا يستطيع العقل أن يسبر أغوارها ويكشـــف أستارها ، فالعقل يقف مبهوتاً أمام أثر أبدعه الله ، كأنه أجنبى لا يفهـــم ومعجزة المعجزات ... الإنسان لا يمكن إدراكها بالعقل بـــل بـــالروح ، فشرارة الحياة التى فينا ليست مادية بل روحية وخالدة تنمو وتســـتمر ، وهى حـــرة ، ويرى برجسون أننا إذا أثبتنا أن الإنســـان حـــر ، بـــدت نظرية دارون فى التطور فى ضوء جديد ، فالإنسان ليس ألعوبة آلية فى يد التنازع المادى القاضى لبقاء الأصلح ، إن تيار الحياة ليدفع الإنســـان أماماً وعالياً فى طريق التطور ، والقوة الدافعة ليست خارجة عن الإنسان بل هى فى داخله ... فهى تبشر فى كل لحظة بأنها ستزدهر وتغدو شـــيئاً لم يخطر بالبال ، إنها تنبع من حقيقة رائعة لا يُعرف كنهها ، وإن روحا قدسية لتكمن فى قدرتها على التقدم ، فالواقع أن جوهر حيـــاة الإنســـان الخلاقة هو الله . ذلك هو الحياة والحياة تدفع إلى أعلى [1] .

" إن تيار الحياة ليمتد بعد موت الفرد ، وهو باق بعد انقضاء لحظة الفشل وميل المادة إلى تحطيم نفسها وتكمن فينا جميعا دفعة الحياة تلك ، قاهرة لا تقهر ، هذه الشرارة الحية ، هذه الطاقة التى تتدخل خلسة مـــن تلقـــاء نفسها فى أحط أنواع المادة وتتلاءم معها ، ثم تسيطر عليها شيئاً فشـــيئاً هذه الطاقة تنطلق آخر الأمر حرة فى الإنسان وتعبر عن نفســـها أروع تعبير فى النفس الخلاقة " [2] .

---

[1] هنرى توماس – المفكرون من سقراط الى سارتر " مرجع سابق ص ٤٦٢ – ٤٦٣.

[2] المرجع السابق ، ص ٤٦٣.

فالروح خالدة عند برجسون ، وطبيعتها مجهولة من جـــانب العقــل ولا سبيل إلى معرفة النفس أو الروح إلا بالحدس .

وذلك حين نسبر أعماق نفوسنا باستمرار فنشعر بديمومتنا ، وبذلك التيار المتدفق المستمر المتصل الذى نسميه نفسا أو روحـــا ، فــالنفس عنــد برجسون هى الروح أو هى الطاقة الروحية الموجودة فى الإنسان والتى تتميز عنده بأنها " ديمومة وذاكرة" والذى جعل الإنسان إنسانا روحه التى تميزه عن سائر الكائنات الأخرى ، ومن ثم فهى أهم ما فيـــه ، وعلـــى التربية أن تساعد الإنسان على شفافية الروح ونقائها ، وبالتالى فالتركيز هنا على النشاط الروحى ، والعناية بالتربية الروحية التى تسمو بالإنسان إلى المرتبة العليا ، فالأخلاق والفنون والدين تأتى فى أعلى العلوم التـــى يجب أن يتعلمها الإنسان ، لأنها هى التى تقى الإنسان من دنس الرذيلة، ومن الانفعالات المريضة التى تثقل الروح إلى الجسد وتفســـد حـــالات النشوة الروحية ، ومن هنا نجد لدى برجسون نزعة صوفية تدعو إلـــى الصفاء الروحى والتطهير من الدنس ، والخلاص مـــن الرذيلـــة التـــى تلتصق بالجسم ، ولذلك اهتم برجسون بالأخلاق والدين وبالتربية الروحية والخلقية كما فى كتابه " منبعا الأخلاق والدين " .

فإذا كنا نهتم بتعليم الصبيان العلوم الطبيعية فكذلـــك يجـــب أن نعلمـــهم المحبة والإيثار " يجب علينا أن نبحث فى أنفسنا ما استطعنا إلى البحـــث سبيلا عن الجوهر الأبدي ، وبقدر إحســـاسنا به يكـــون إتجاهنـــا نحـــو الكمال ، وقد أدرك البعض منا هذه الحقيقة فكانوا أمثلة حية من الكمـــال الروحى دون أن يكون لهم دراية بالعلوم ، لقد تعهدوا بالملاحظة والتربية

لقواهم الأبدية حتى أزدهرت فأنت أبرك الثمرات ، ولكن ما تلك القـــوى الابدية ؟

إنها المحبة والإيثار ... ومن أجل ذلك يعجب برجسون غاية العجب فى أن يرى حضارة اليوم لا تقرن أى إصلاح بالدعوة إلى تلك القوى الأبدية فننتفع بها كما ننتفع بالفحم والحديد والكهرباء ، إن تعليم الصبيان منـــافع الايثار لازم لزوم تعليمهم منافع الحديد والنار" (١) .

وضح تماماً أن برجسون يدعو إلى تربية تقوم علـــى الأخـــذ بـــالعلوم الطبيعية والقيم العليا والعواطف الإنسانية ، فالإنسان ليس جسماً فقط بل هو روح وقلب وعقل وجسم ، ومهمة التربية ألا تتجاهل أياً مـــن هـــذه القوى بل تنميها جميعاً بمقادير متناسبة ، وتعمل على التكامل بينها فتنسج منها وحدة عضوية ، وألا يطغى منها جانب على الآخر ، فتركز التربية على العواطف الإنسانية كما تركز على المعارف العلمية .

فيسير التقدم العلمى جنباً إلى جنب مع الكمال الروحى ، فهل يكفى العلم وحـــده لسعادة الإنسانية ؟ أى هل يملأ العلم فراغاً فى نفوسنا ، أم هـــل هو يعجـــز عن ذلك فتبقى نفوسنا خاوية متعطشة إلى أفق أرحب من أفق هذه الدنيا ، دنيا العلم ؟

وإجابة برجسون العلم وحده لا يكفى لسعادة الإنسانية ، ولـــذا يجـــب أن يصاحبه الكمال الروحى ، وهذا هو دور التربية التى يجـــب أن تطـــير بجناحين أحدهما المادة والآخر الروح .

---

(١) مراد وهبة " المذهب فى فلسفة برجسون " مرجع سابق ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

خاتمة الفصل

إستهدف هذا الفصل دراسة الطبيعة الإنسانية والتربية عند كل من برجسون وكروتشه ولالاند وبرنشفك .

وبعد العرض السابق الذى اتضح من خلاله أن الفيلسوف المثالى المعاصر يرى أن الطبيعة الإنسانية فى حالة من التطور والنمو مدى الحياة ، وهى تكتسب خبرات جديدة يوماً بعد يوم سواء كانت هذه الخبرات مباشرة أو غير مباشرة وأن هذه الخبرات تتراكم وتختزن فى الذاكرة التى تستدعيها وقت الحاجة إليها .

والفيلسوف المثالى المعاصر يرى أن الإنسان خير ولكن لديه نزوع نحو الشر ، والتربية تعمل على تهذيب وتأديب هذا النازع الشرير ، ولذلك تهتم المثالية المعاصرة بالتربية الخلقية كما أنها تهتم بالتربية العقلية للإنسان ، فتربية العقل والإرادة أهم من غيرها عند المثالى المعاصر .

وتؤكد المثالية المعاصرة على حرية الإنسان ، حرية الفكر والرأى ، وحرية الروح ، وترى المثالية المعاصرة أن الحياة الروحية كفاح دائم ومستمر ، وليست الحياة سلسلة متراخية مملة وخاوية من كل تقدم بل هى سلسلة دينامية مملوءة بالنشاط والروح والحركة .

وتدعو المثالية المعاصرة الإنسان إلى اقتحام الحياة لا العزوف والزهد عنها ، فهى فلسفة إيجابية تدعو الإنسان إلى المشاركة فى الحياة من أجل تطويرها إلى الأفضل على عكس الفلسفة الوجودية التى تدعو إلى القلق والاكتئاب والانتحار .

لا شك أن المثالية المعاصرة تدعو إلى طـــهارة الإنســـان مـــن الدنـــس والخطيئة ، وسيطرة العقل على الأهواء والميول مما جعلها تقترب مـــن بعض أوجه التصوف والزهد ، ولكن المثالى المعاصر يرى أنـــه يجـــب الاهتمام بالتجربة الروحية والتجربة المعملية أيضاً .

عصرنا هو عصر العلم والمادة ولكن المثالى المعاصر يدعو إلى إيقـــاظ الروحية كفلسفة فى عالم تسوده فلسفات مادية تدعو إلى الكفر والإلحاد ، ومن هنا كانت فلسفة برجسون الروحية رد فعل ضد الماديـــة ، ولكـــن المثالى المعاصر يحيا فى عصر العلم ولن تحيا فلسفته إلا إذا ارتدت ثوباً جديداً يجعلها تقوم على المعرفة العلمية كما يظهر ذلك عند برنشفك الذى تحمس للعلم تحمساً لا حد له ، فالمعرفة الفلسفية عنده هى تلك المعرفـــة التى تتناول المعرفة العلمية بالنقد والتحليل وتكون لنـــا هـــذه المعرفـــة الفلسفية عالماً لنا هو الوجود الحقيقى ، وفـــى الفصـــل التـــالى عـــرض للمعرفة والتربية عند برجسون ولالاند وكروتشة وبرنشفك حتى يتبيـــن موقف المثالى المعاصر من المعرفة والتربية .